

ابراهيم بن المهدي : حياته الفنية

كان إبراهيم بن المهدي من أنبع المغنين وأخبرهم بالأنغام والوتر والإيقاع ، ومن أجملهم صوتاً ، وأطبعهم غناء ، جيد الصنعة ، حسن الأداء . وهو أول من نبذ الغناء القديم وحوّره ؛ لأنه كان مقصراً فيه ، وابتكر الغناء الجديد ، وأصبح زعيم المذهب الجديد في الغناء ، في حين كان إسحاق الموصلي زعيم المذهب القديم ، والخصم العنيد ، والمنافس الخطر لإبراهيم ابن المهدي .

وكان المغنون ذوو الأصوات الجميلة في العصر العباسي الأول : ابن جامع ، وعمرو بن أبي الكنباب ، وإبراهيم بن المهدي ، وهم من الطبقة الأولى في الفن . أما من اتبع طريقة إبراهيم الجديدة ، فخارق وشارية ورقيق ويحيي المكي وحسين بن محرز وإسماعيل بن جامع وسواهم .

كانت صنعة إبراهيم في الغناء لينة ورقيقة . وطالما نسب ما يصنع إلى جاريته شارية ورقيق لثلا ؛ فيسح مجالا للناس لا تنقاده ولومه ، حتى قلت أغانيه بين الناس مع كثرتها .

وحينما كان يلام اتعديله في الغناء القديم وتبديله ومجديده ما طاب له التجديد ، يقول : « أنا ملك وابن ملك ، وإنما أغنى على ما أشتهى وكما ألتذ . » (١) ذكره ابن النديم فوصفه بقوله : « أول نابغ نبغ من بني العباس . له ترسل وشعر ، وصنف كتباً . . . لم يُرَ في أولاد الخلفاء قبله أفصح منه ، ولا أشعر . وله مع ذلك صنعة في الغناء يتقدم بها كل أحد . وكان إسحاق وإبراهيم قبله يأخذان عنه ، ويتحاكم المغنون إليه في صناعته . . . وله من الكتب :

(١) النويري : نهاية الأرب في فنون العرب : ج ٤ ص ٢٢٦ .

ابراهيم بن المهدي : حياته الفنية

كتاب أدب ابراهيم « و » كتاب الطبيع « و » كتاب الطب « و » كتاب الغناء .^(١)

وبلغ من جمال صوته أن قال ابن أبي ظبية : « كنت أسمع ابراهيم بن المهدي يتنحنج فاطرب . »^(٢)

وقال الأصفهاني : « . . . وكان رجلاً عاقلاً ، فهِماً ، ديناً ، أدبياً ، شاعراً ، راوية للشعر وأيام العرب ، خطيباً فصيحاً ، حسن العارضة . وكان إسحاق الموصلي يقول : ما ولد العباس بن عبد المطلب بعد عبد الله بن العباس ، رجلاً أفضل من ابراهيم بن المهدي . فقيل له : مع ما تبدّل له من الغناء ؟ فقال : وهل تم فضله إلا بذلك ! »^(٣)

وكانت أخته عَلِيَّة بنت المهدي ندّاً له في الغناء والشعر ؛ فقد كانت على مقدار كبير من الحذق والنبوغ في الشعر والتلحين والغناء . وكانت تتمتع بصوت رخيم عذب ، حتى قال عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع : « ما اجتمع في الإسلام قط أخ وأخت أحسن غناءً من ابراهيم بن المهدي وأخته عَلِيَّة . وكانت تقدّم عليه . »^(٤)

وقال ابن الطقطقي : « . . . وكان فاضلاً ، شاعراً ، فصيحاً ، أدبياً ، مغنياً ، حاذقاً . وإليه أشار أبو فراس بن حمدان في ميميته بقوا

منكم عَلِيَّة أم منهم وكان لكم شيخ المغنين ، ابراهيم أم لهم^(٥)

ويستطرد الأصفهاني بقوله : « . . . لو ذهبت إلى شرح سائر أخبار ابراهيم ابن المهدي وقصصه لما ولى الخلافة ، وغير ذلك من وصفه بفصاحة اللسان ، وحسن البيان ، وجودة الشعر ، ورواية العلم ، والمعرفة بالجدل ، وجزالة الرأي ، والتصرف في الفقه واللغة وسائر الآداب الشريفة ، والعلوم النفيسة ، والادوات الرفيعة ، لأطلت . . . فلذلك اقتضت على ما ذكرته من أخباره دون ما يستحقه من التفضيل والتبجيل والثناء الجميل . »^(٦)

(١) الفهرست : ص ١٦٨ .

(٢) الأغاني : ج ١ ص ١٠٧ .

(٣) الأغاني : ج ١ ص ١٦٣ .

(٤) الأغاني : ج ١ ص ٩٧ .

(٥) الفخرى : ص ١٦٠ .

(٦) الأغاني : ج ١ ص ٩٧ .

لم يكن إبراهيم يغنى إلا في مجالسه الخاصة ، وفي مجالس الخلفاء . وكان يغنى سرّاً ترفعاً وأتفة ، أو إذا دعاه الرشيد أو الأمين . فلما ظفر به المأمون وغفا عنه ، أسرف في صنعة الغناء وشرب النبيذ في مجلسه ، وغدا يخرج من عنده ثللاً مع المغنين ، وذلك لفرط شغفه بالغناء . فاتتهز المأمون هذه المناجحة ، وشجعه على سلوكه ، وأذاع بين الناس أن عمه عزف عن المطالبة بالخلافة ، وأنه لا يصلح لها مجونه

روى الأصفهاني عن جمال صوت إبراهيم بن المهدي ، أن الحسين بن إبراهيم ابن رباح قال : « كنت أسأل مخارقاً : أى الناس أحسن غناء ؟ قال : كان إبراهيم الموصلي أحسن غناء من ابن جامع بعشر طبقات ، وأنا أحسن غناء من إبراهيم الموصلي بعشر طبقات ، وإبراهيم بن المهدي أحسن مني بعشر طبقات ... أحسن الناس غناء أحسنهم صوتاً ؛ وإبراهيم بن المهدي أحسن الجن والإنس والوحش والطير صوتاً ، وحسبك هذا . » (١)

وذكر أبو المحاسن بن تغري بردي عن تأثير جمال صوت إبراهيم وعذوبته قال : « ... وعن منصور بن المهدي : كان أخى إبراهيم إذا تنجح طرب من يسمعه ، فإذا غنى أصغت إليه الوحوش ومدت أعناقها إليه ، حتى تضع رءوسها في حجره ، فإذا سكنت نفرت وهربت . وكان إذا غنى لم يبق أحد إلا ذهل ويترك ما في يده حتى يفرغ . » (٢)

ذكر النويري ما يدل على عبقرية إبراهيم في الغناء ، قال .
« وحكى عن إسحاق بن إبراهيم ، قال : لما صنعت صوتي الذي هو

قل لمن صدّ عاتباً وناى عنك جانباً
قد بلغت الذي أردت وإن كنت لأعباً
واعترفنا بما ادّعيست وإن كنت كاذباً
فافعل الآن ما أردت فقد جئت تأبياً

اتصل خبره بإبراهيم بن المهدي ؛ فكتب إلى يسألني عنه ، فكتبت إليه

(١) الأغاني : ج ١ ص ١٣٣ .

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : ج ٢ ص ٢٤١ .

ابراهيم بن المهدي : حياته الفنية

الشعر ، وإيقاعه ، وبسيطه ، ومجراه ، وأصبعه ، وتجزئته ، وأقسامه ، ومخارج
لغته ، ومواضع مقاطيعه ، ومقادير أدواره ، وأوزانه ، فغناه . ثم لقيني ،
فغنّانيه ، ففضلني فيه بحسن صوته . » (١)

غنى إبراهيم في داره هذه الأغنية من نظمه وتلحينه .

وإذا تباع كريمة أو تُشترى فسواك بالنها وأنت المشتري
وإذا صنعت صنعة أتمتها يدين ليس نداها بمكدر

وكانت جارية رومية لا تفهم العربية ، تكنس في جانب من الدار ، وكان
إبراهيم يطرح هذه الأغنية على جاريته شارية ، وإذا بالجارية الرومية تذرف
دموعاً حارة . ولما ماتت الألفاظ في حنجرة إبراهيم وتلاشت في عالم العدم ؛
جفت الدمع من عيني الرومية . فكان صوت إبراهيم الشجي أثار في نفسها
ذكريات عزيزة ، ما تماكنت معها عن صون دمعا الحبيس من الانطلاق من
مكانه ، فأنسلت من الأحداق سخياً غزيراً ، حيث أطفأ جمره تضطرم في
فؤادها الكلم .

دخل إبراهيم يوماً نشوان إلى مجلس الرشيد ، وكان في مجلسه إبراهيم
الموصلى وابن جامع . فقال الرشيد في دعة :
— بحياتي يا إبراهيم غني !

فتناول إبراهيم العود ، ولم يلتفت إلى الموصلى وابن جامع وغنى في شعر
لجير من تلحين ابن عائشة :

أسرى بخالدة الخيال ولا أرى شيئاً ألدّ من الخيال الطارق
إنّ البلية من تملّ حديثه فانقَع فؤادك من حديث الوامق
أهوك فوق هوى النفوس ، ولم يزل مذِبتِ فلي كالجنّاح الخافق
طرباً إليك ولم تُبال حاجتي ليس المكاذب كالخليل الصادق

فقال إبراهيم الموصلى لابن جامع ، وقد لمس تفوق إبراهيم وحذقه :

(١) نهاية الأرب في فنون العرب : ج ٤ ص ٢٢٧ و ٢٢٨ .

— لو طلب هذا بهذا الغناء ما نطلب ، لما أكلنا خبزاً أبداً !
فأجابه ابن جامع متمللاً :
— صدقت .
ولما انتهى إبراهيم من غنائه أجابهما قائلاً في رزاة :
— خذا في حقكما ودعا باطلنا !

كان الرشيد يحب أن يستمع غناء أخيه إبراهيم ، إلى أن تسنى له أن ينفرد به مرات . وذات يوم حضر مجلسه سليمان بن أبي جعفر ، فقال الرشيد لإبراهيم في لين :

— عمك وسيد ولد المنصور بعد أبيك ، وقد أحب أن يسمعك
فاذا بإبراهيم يغني شعراً للأحوص من تلحين ابن سريج ، وهو :
سقياً لربك من ربيع بذي سلم وللزمان به إذ ذاك من زمن
إذ أنت فينا لمن ينهالك عاصية وإذا أُجِرْ إليكم سادراً رسنى
وقد بلغ من طرب الرشيد أن أمر له بألف ألف درهم .

قال هارون الرشيد ذات ليلة لأخيه إبراهيم ، وكان في مجلسه جعفر ابن يحيى فقط :

— أنا أحب أن تشرف جعفرأ بأن تغنيه صوتاً .
فغرد إبراهيم في شعر الدارمي من تلحينه :

كأن صورتها في الوصف إذ وصفتُ دينارُ عينٍ من ألمصرية العُتُقِ
أودرة أعيت الغواص في صدف أو ذَهَبُ صَاغِه الصواغ من ورقِ

فأهتر الرشيد وجعفر من الطرب ، حتى بلغ منهما الجذل أقصاه .

كان إبراهيم يحسن الإيقاع على الطبل والنأي . وقد أوقع مرة على الطبل إيقاعاً أذهل الحاضرين بإتقانه . وطلب إليه الأمين يوماً أن يزم ، فأجابه بأنه لم يحاول ذلك بعد ، ولن يحاول ؛ ولكنه سأل الأمين أن يحضر جارية من

موالى المهدي ، فأمرها أن تنفخ في الناي ففعلت ، فأمسكه إبراهيم وشرع يمر بأصابعه على فتحاته كلما مر الهواء ، في لباقة وتفنن ، حتى ملك لب الحاضرين . وقد بلغ من براعته إذ ذاك أن أجمع الحاضرون على أنهم لم يتمتعوا بسماع عزف على الناي أجمل من هذا العزف السحري .

لما أخرج عيسى بن محمد بن أبي خالد من السجن ، وهو من أنصار إبراهيم في خلافته ، وقد سجن لخيانته ، كان إبراهيم يغني المأمون بعد ظفر المأمون به ، أغنية من شعره وتلحينه :

ذهبتُ من الدنيا وقد ذهبتُ مني هوى الدهرُ بي عنها وولى بها عني
فإن أبكِ نفسى أبكِ نفساً عزيزة وإن أحتسبها أحتسبها على ضن
وأفلتتِ عيسى وكانت خديعةً حللتُ بها ملكي وفلّت بها سني

فأشفق عليه المأمون ، وقال له في عطف ورقة :
— والله لا تذهب نفسك يا إبراهيم على يد أمير المؤمنين ، فطب نفساً ،
فإن الله قد أمنك ، إلا أن تُحدثَ حديثاً يشهد عليك فيه عدلٌ ، وأرجو
ألا يكون حديثٌ إن شاء الله .

رغب المأمون إلى إسحاق الموصلي أن يغني لحناً من شعر الأخطل :
يا قلّ خيرُ الغواني كيف رُغنَ به فشرُّهُ وشلُّ منهن تصريدُ

فغناه إسحاق ببراعة ، فأعجب به المأمون . ثم سأل إبراهيم أهو لحن هذا الشعر ؟ فقال نعم ، وغناه غناء رائعاً . فغمرت المأمون نشوة لذيدة من الطرب ، وفضله على غناء إسحاق الذي لم يكن في وسعه أن يفنده ، لحذقة فيه وتفوقه عليه .

غنى إبراهيم ذات يوم في مجلس المأمون غناء ممتعاً ، فاستحوذ الطرب على أبي زيد ، وهو كاتب لطاهر ، فوثب وقبّل طرف ثوب إبراهيم إعجاباً به وبصوته الرخيم . فرمقه المأمون شزراً مستهجنأً فعله . فقال له في حماسة :
— ما تنظر ! أقبله والله ، ولو قتلتُ عليه !

ابراهيم بن المهدي : حياته الفنية

فلاحت بسمة لطيفة على ثغر المأمون ، وهمس في دعة :
— أبيت إلا ظرفاً !

كان المعتصم يضم في يده طاقة يالعة من النرجس ، فطلب إلى إبراهيم أن
يقون فيها شعراً ويغنيه . فاطرق إبراهيم هنيهة ينكت في الأرض بقضيب ، ثم
ارتجل هذه الأغنية :

ثلاثُ عيونٍ من النرجسِ على قائمٍ أخضرٍ أُمسِر
تُدكّرني طيبَ ريثا الحبيبِ فيمنعني لذة المجلسِ

فأعجب به المعتصم وغمرته البهجة وتملكه الطرب ، فامر له بجائزة سنية .

وفي ٧ رمضان سنة ٢٢٤ سكت قلب إبراهيم بن المهدي عن الخفقان ،
وخبا النور المتألق في عينيه ، نخرست تلك الحنجرة الذهبية الشجية عن التفريد
الحنون ، ومات عبقرى بنى العباس ، بعد أن ملأ الدنيا شعراً ونثراً وفناً ؛
وبعد أن فاض فصاحة وبلاغة وبياناً ، وغمر الحياة أنساً ومرحاً وطرباً ، وبعد
أن زخرت حياته الصاخبة الوثابة ، بجلال الأعمال والحوادث الجسام ، وأنتج
من روائع عبقريته ما يخلده على تعاقب الأزمان ومدى الأعوام .

منير الحسامي